

الادب المصري

بين الردى والنهوض

في الشرق عامة ، وفي مصر خاصة ، نزعة وثابة للأخذ بسبيل الإصلاح والتجديد ، ورغبة ملحة لتقويم النائع من كل قديم : إن بتصفيته وتهذيبه ، أو تنقيته وتشذيبه ، بغية مجارة الزمن الذي يأتي إلا التطور ، ونزولا على حكم العصر الذي نعيش فيه .

لكن تلك النزعة المتوثبة ، أو هاتيك الرغبة الملحة ، ما تلبث الواحدة منها ظهوراً ، أو تبدو طلائعها متلاحمة ، آخذاً بعضها برقاب بعض ، حتى تقابل بالصد والاعراض آناً ، أو ترى بالاثم والعدوان آناً آخر .

وهذا الاثم والعدوان ، أو ذلك الصد والاعراض ، مصدره فئة من الناس - لا يخلو منها عصر من العصور - ألفت البقاء على القديم ، والاتصاف لكل ما يمت بصلة إلى القديم - أيا كان نوعه - دون نظر إلى النافع والضار منه ، أو تفريق بين الصالح والطالح فيه ؛ ومن ثم تكون الفوضى المطلقة ، ويصبح الإصلاح ، في بادئ الأمر ، عسيراً أو متعسراً ، لا ضابط له يحميه ، ولا نظام يقيه .

وقد يبدو لأول وهلة أن أنصار القديم في النهاية منتصرون ، وأن أشياع التجديد مندحرون ، لكن الأمر على النقيض من ذلك ، إذ ثبت العكس ، وأصبح مقررراً في علم الاجتماع أن الفكرة ، أيا كان نوعها ، تخلق لها أنصارها وأعوانها ، مهما لاقت من قيود ، أو صادفت من عقبات ؛ ولسنا الآن بصدد التدليل على صحة ذلك ، فقد أوضحنا الأمر فيه منذ سبعة شهور . (١)

قد يفهم القارئ لأول وهلة مما تقدم ، أننا من أنصار الجديد ، بل قد يفهم أننا من أشد أنصار الجديد وأعوانه ؛ ولسنا نتحرز ممن يفهمنا على هذا النحو ، وإن كنا في الحق لانميل إلى اعتناق كل جديد على إطلاقه دون قيد ولا شرط ، وإنما نريد ألا يعمم التجديد في جماع المسائل وأمهاات الأمور إلا بمقادير يسيرة ، لا تخرجها عن منطوقها ومألوفها ؛ ومن هذه المسائل التي تقصد : الأدب العربي الخالد ، الذي يجب أن يبقى له اسمه ووصفه ، مادام في العالم ناطق بالضاد ؛ وفي تفصيل ما أجملنا نقول :

قامت منذ سنوات معدودات فئة تدعو إلى تمصير الأدب العربي ، أو خلق أدب قومي ، فصنفق لها جماعة من المتأدبين ، وهلل لها جبهة من الشباب المتحمسين ، ولا ضير في هذا كله ما داموا للعربية حافطين ؛ لكن إلى جانب هذه الفئة ، قامت فئة أخرى تدعو إلى خلق أدب مصري خالص ، لا يمت إلى الأدب العربي بصلة ، ولا يرتبط بالعروبة وبوشيجة أو نسب ، وقد

(١) راجع مقال (حرية الرأي وأنصار الجود) في الجزء الخامس من هذه المجلة .

أخذت هذه الفئة الثانية تروج لدعوتها بكل ما فيها من قوة وحماس ، واستغلت — أكثر مما استغلت الأولى — روح الشباب المتوثب ، وتغنيه بما أثر أجداده القدماء ، وترداده لكلمات: الوطن، والوطنية ، ومصر ، والمصرية ، وما إلى هذه من أسماء ومسميات .

و نود الآن أن نقرر لأصحاب هذه الفكرة الجديدة ، فكرة الأدب المصرى الخالص ، أن فكرتهم على ما بها من جدة ، لا تقوم على أساس علمى صحيح؛ فهذا الأدب المصرى الخالص، الذى ينادى به أشياعه ، ليس إلا أدباً زائفاً لا يعتمد على نفسه، وإنما يعتمد على غيره من الآداب؛ وما من شك فى أن الأدب المصرى فى لحته وسداه، ليس إلا الأدب العربى مهذباً، والتفكير العربى ممصراً ، فإن أبى أصحاب الدعوة إلا الانكار، فليدلو ناعن اللغة القومية التى بها يكتبون، فإن كانت: الهيروغليفية ، أو القبطية ، أو العامية المصرية — وهذه هى اللغات المصرية — سلمنا لهم بما يدعون، أما إن كانوا يسجلون خواطراً، ويرسمون أحاسيسهم، بغير لغة من تلك اللغات، فذلك هو المنطق المعكوس بعينه ، والشئ الذى لا يصح فى الأذهان؛ وإنما الذى يستقيم والمنطق ، هو أن لنا أدباً عربياً مصرياً: عربياً من حيث اللغة والانشاء، مصرياً من حيث التفكير والأسلوب . وبعد، فإن أخلاق الناس ، ودقة تفوسهم ، وحدة أذهانهم ، ولون العيش الذى يعيشون، وأساليب الحياة التى يحيون ، وروح الفن الذى يتذوقون ، أمور لا تظهر فى صورة واحدة، ولا يمكن تبianaها إلا فى الأدب وحده ، ومن الأدباء وحدهم، سواء أ كانوا كتّاباً أو شعراء أو مفكرين ؛ وهؤلاء لا يمكن لهم أن يؤدوا الرسالة التى يحملون ، ما لم يتذوقوا اللغة التى بها يكتبون ؛ ويعلموا بأسرار البلاغة التى بها يتحدثون، ويحفظوا من تاريخ آبائهم وأشعار أجدادهم وتدرج منشورهم ما به يسجلون ؛ فهل يوجد فى مصر الآن ذلك الكاتب أو هذا الشاعر الذى يستطيع أن يؤدى تلك الرسالة بلغة مصرية، أو فى بلاغة قبطية؛ أو فى تورية عامية ، لنستطيع أن نسميه الكاتب المصرى، أو الشاعر المصرى، بالمعنى الذى يجب فهمه من إطلاق الصفة على الموصوف؟ أحسب أن هذا الكاتب أو ذلك الشاعر لا وجود له إلا فى أدمغة الخياليين من المتأدين وأشباه المتأدين؛ ولمثل هؤلاء يجب أن نعرفهم أن الكاتب أو الشاعر الذى لا ندرك منه نظام حياتنا الاجتماعية، وأحاسيسنا ومشاعرنا النفسانية، لا يكون كاتباً ولا شاعراً بحال.

ذلك لأنك تستطيع أن تدرك نظام الحياة وما شابهها من أحاسيس وشاعر، وإدراك عادات، وتفكير وأوضاع - سواء أ كانت ألمانية أو انجليزية أو فرنسية. من الكاتب الفرنسى أو الشاعر الألماني أو الروائى الانجليزى ، دون إجهاد فى التفكير أو إمعان فى الاستنتاج، وآية ذلك ما تبينه من الخلق الثورى فى الشعب الفرنسى من كتابات كتّابه وشعرائه: كفيكتور هوغو، وجان جاك روسو، وفولتير، وأنتول فرانس وأمثالهم.

وهذا الذى تجده من قراءة لك للأدب الفرنسى، إن كنت من قرائه، تجده فى الأدب الألمانى، متمثلاً فى جوت وبتوفن وفنر وأتراهم من شعراء الألمان، وإنما بصورة أخرى تخالف الأولى، فهنا ترى الروح الجرمانى الحربى المتأصل فى نفوس الشعب الألمانى، وكذلك تستطيع أن تدرك خلق الرزانة السكسونى من قراءة لك لأمثال شكسبير وملتون وولزوبر نارد شو وغيرهم، تستطيع أن تدرك ذلك كله، وإن لم تسافر إلى فرنسا أو ترحل إلى ألمانيا أو تبحر إلى إنجلترا، وهذا هو الأدب القومى الذى يمثل لك أصدق تمثيل خواج البيئة الموضوعية، قبل أن يمثل لك روح الجماعة العام. وإذن، فالأدب القومى، عند التحقيق، أدب موضوعى خالص، لا يترجم إلا عن الحياة الفردية لاجتماع بالذات، ولا يبحث إلا فى العواطف الموضوعية لبيئة بالذات، فان تعدى هذه الحدود والأوضاع، يصبح أدباً عالياً بقدر ما يخفق لواؤه على أنحاء المعمور التى تخضع لهذه الجماعة أو ذلك الشعب الذى نشأ فيه، ومن ثم يتلون فى كل بيئة أو أمة ينزل بها، شيئاً فشيئاً، حتى يكتسب بهذا اللون اليسير نوعاً من القومية المحلية.

مثالنا على ذلك: الأدب العربى القديم، فإما من شك فى أنه كان أدباً قومياً بحتاً فى بداءته، فأنت تلمس هذه القومية فى دواوينهم وشعارهم وأخبارهم، فتعرف أى نفوس كانت للعرب، وأى أخلاق كانت تتخلق، وأى خصال كانوا يتحلون، وهذه كتب القصص على ضوء ولتها وقلتها، بل تلك الحكايات والأمثال العربية على قصرها وإيجازها، كنفيلة بأن تطمعلك على ما كان للعرب من قلوب واعية، ونفوس ملتزمة، وأعصاب متينة، وأخلاق قوية. تستطيع أن تلمس هذا كله من قراءة لك للأدب العربى القديم، ولكنك لا تستطيع فهمه من الأدب الحديث إلا فى القدر اليسير منه، وهو القدر الذى يتصل بالقصة بعض الاتصال، وما ذلك إلا لأن الأدب العربى كان فى بداءته أدباً قومياً، فلما انتشر الاسلام - والعربية لغته - خفق علمها فى أكثر البلدان التى نزلت بها، فتلون أدبها، فى كل مكان حطت فيه رحالها، باللون المحلى الضئيل، ومن ثم أصبح أدباً عالياً: بمرور الزمن، وتعدى اللال والنحل، الناطق أهلها بالضاد.

نخلص مما تقدم ومما يأتى إلى أمرين رئيسيين:

أولهما: عالمية الأدب وقف على انتشار لغته، وهى كما انتشرت، كما راجت سوقها الأدبية وتفتت منتوجاتها الفكرية، وهذا ما يحاوله الانجليز الآن، ويعملون فى سبيله جادين مستميتين. ثانيهما: قومية الأدب لا تقوم بغير لغة قومية خاصة، ولا تعدو جماعة بالذات أو شعباً بالذات، كالأدب الزنجى الذى لا نظن أن له مثقال ذرة من الشهرة فى العالم، فهل نود أن يكون هذا نصيب أدبنا العربى، ونحن احفاد العرب، وبلدنا كعبة آمال الناطقين بالضاد، وملتقى الشرق بالغرب؟

نحن لانمانع مطلقاً فى أن يكون لنا أدب قومى نعتز به ونفخر به ؛ ولكن على أساس لا يتنافى والمعقول ، وما أحسب ذلك الأساس معقولاً — بالنسبة لنا — فى غير اللغة العربية ، لغة آبائنا وأجدادنا منذ ثلاثة عشر قرناً أو تزيد ، أفنهدر هذا الكثر الثمين لقاء شعوذة ضعفاء العقول ممن لا يستطيع أكثرهم قراءة بيت واحد من الشعر قراءة عربية صحيحة ، بقدر ما يستطيعونه فى قراءة ضخام المؤلفات من مؤلفات الفرنج ؛ أجدر بهؤلاء أن يقبعوا فى دورهم ليمذاكروا لغة آبائهم ، ويتدارسوا تاريخ أجدادهم ، فذلك بهم أحق وأجدر إن كانوا يعقلون ، وأكثر إفادة من دعوى فارغة لا يستطيعون الدفاع عنها ، لا بفصيح القول ، ولا بصحيح العبارة ؛ وأنا قمين بأنهم فى اليوم الذى ينتهون من تلك الدراسات سيكونون أول المدافعين عن العرب والعربية ، والذائدين عن بيضتها ، ويومئذ نستطيع أن نقعد لهم زعامة الأدب ، وأن ندين لهم بالطاعة إن كانوا منتجين ، ويومئذ نتخلص من ذلك الصنف الذى يفرع إلى المؤلفات الغربية أو العربية القديمة ، وأخصها كتب القصص ، فيسلبونها أرواحها ، ويسرقونها آثارها ، ثم يذهبون فى الناس شاذى الأنوف ، رافعى راية العصيان على الأدب العربى ، مدعين فى غير ما صدق ولا ولاء ، أنهم أتوا للأدب المصرى بجديد .

وبعد ، فليست دولة الأدب مستباحة الحرمه لا حراس يحمون زمارها ، ولا أعوان يذودون عن بيضتها ، حتى يسلبها هؤلاء تاجها ، وينقضوا عليها انتقضا الصاعقة ، ولكن لها ناموساً لا تجرؤ أية قوة فى الأرض على ثلم كرامته ، أو انتهاك حرمة ، فهل يعقلون ؟ إن كنتم ياهؤلاء ! تودون للأدب المصرى ، أو للأدب القومى - إن شئتم - نهوضاً ونجاحاً ، فاطلبوها فى لغة العرب ، ومؤلفات العرب ، ولاضير عليكم فى نحت مالا يستسيغه العصر الحاضر ، وصوغه فى قالب لفظى آخر ، بل لاضير عليكم فى إدخال كلمات العالم جميعاً ، بعد صياغتها الصيغة العربية اللازمة ، وهذا إن عجزتم عن كلمات أصيلة العروبة .

جددوا فى اللغة بقدر ما تستطيعون ، فإ اللغة إلا كائن حتى خاضع لنا ، وس التطور والارتقاء ... لكن ! إياكم وتجاوز الحدود !
عبد العزيز الاسلامبولى

المعرفة فى عامها الثانى

ستصدر «المعرفة» — باذن الله — فى الشهر المقبل

فى حلة جديدة ، لمناسبة دخولها فى عامها الثانى